مجلة الاتحاد العربى للنشر العلمى
الإصدار السابع عشر
المجلد (٥) العدد (١٧)
٢٠٢٤ (١-١٥)

United Arab Scientific Publishing Company

مجلة الاتحاد العربى
للنشـــر العلمـــى

"أسلوبية الانزياح في النصوص الشرعية، القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف"

فاطمة الزهراء عابيدي
(جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال)
نشر إلكترونياً بتاريخ: ١ يناير ٢٠٢٤ م

الملخص :

إن حديثنا عن الأسلوبية يقودنا حتما إلى القول إنها علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها أيضا علم يدرس الخطاب موزعا على مبدأ هوية الأجناس، ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات، متنوع الأهداف والاتجاهات، وما دامت اللغة ليست حكرا على ميدان إيصالي دون آخر، فإن موضوع علم الأسلوبية ليس حكرا هو أيضا على ميدان تعبيري دون آخر.

الكلمات المفتاحية :

(أسلوبية الانزياح- القرآن الكريم- الحديث النبوي- اللسانيات- الانزياح الدلالي)

مقدمة :

وتبقى الأسلوبية هي صلة اللسانيات بالأدب ونقده، وبها تنتقل من دراسة الجملة- لغة- إلى دراسة اللغة نصا، فخطابا، فأجناسا، ولذلك كانت الأسلوبية "جسر اللسانيات إلى تاريخ الأدب" كما عبر عن ذلك سبيتزر.

والذي يحاول تتبع مفهوم الأسلوبية يجد أنه مفهوم زئبقي، بحيث يصعب تحديده والإمساك به، وسنورد هنا بعض التعريفات لهذا المصطلح، أولها تعريف جاكبسون الذي يرى أن الأسلوبية: "بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا" وجاكبسون رغم اهتدائه إلى جوهر قضية التحديد بالمقارنة، والمفارقة فإنه يقتصر في شيء من العفوية على إثبات أن الأسلوبية فن من أفنان شجرة اللسانيات.

أما أريفاي فيقول: "إن الأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات" . في حين يرى دولاس: " إن الأسلوبية تعرف بأنها منهج لساني". أما ريفاتار فينطلق من تعريف الأسلوبية بأنها علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف الباث مراقبة حرية الإدراك، لدى القارئ المتقبل وجهة نظره في الفهم والإدراك، فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية "لسانيات" تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين، وإدراك مخصوص.

وحديثنا عن الأسلوبية يقودنا حتما إلى الحديث عن بعض ما قامت عليه، وأخص بالحديث هنا ظاهرة الانزياح، أو ما يسميه بعض النقاد والباحثين بالعدول أو الانحراف.

أولا: الانزياح في اللغة والاصطلاح:

نقول: نزحت دَار بني فلَان إذا تَبَاعَدت نزوحا. والنازح: البعيد . فالنون والزاي والحاء إذن كلمة تدل على بعد. فمنه بلد نازح. ومنه نزح الماء، كأنه يباعد به عن قعر البئر .

هذا من الناحية اللغوية، أما إذا بحثنا من الناحية الاصطلاحية فنجد أن الانزياح مصطلح أسلوبي مستحدث، إنه استعمال المبدع للغة: مفردات، وتراكيب، وصور، استعمالا يخرج بها عما هو معتاد ومألوف بحيث يحقق المبدع ما ينبغي له أن يتصف به من تفرد وقوة جذب.

وهذا ما جعل الدراسات النقدية، والأدبية الحديثة تهتم بظاهرة الانزياح، وتعتبره من القضايا الأساس في تشكيل جماليات النص الأدبي، بل وتعتبره كذلك حدثا لغويا في تشكيل الكلام وصياغته. وهذا الحدث اللغوي الذي يسهم في إعادة تشكيل الكلام وصياغته، ما هو إلا خروج عن المعيار، وعن المعتاد الذي تمَله، أو تمُجه أحيانا أذن السامع، إنه خرق للمعيار، وثورة عن المألوف، وذلك قد يكون لغرض في نفس المتكلم، أو ربما جاء عفو الخاطر.

إن أهمية الانزياح لا تنحصر في جزء أو جزأين من أجزاء النص، وإنما يشمل أجزاء كثيفة متنوعة متعددة، فإذا كان قوام النص لا يعدو أن يكون في النهاية إلا كلمات وجمل، فإن الانزياح قادر على أن يجيء في الكثير من هذه الكلمات وهذه الجمل، ومن أجل ذلك صح أن تنقسم الانزياحات إلى نوعين رئيسيين تنطوي فيهما كل أشكال الانزياح، ومن هنا يمكن تقسيم الانزياح إلى قسمين: انزياح دلالي، وانزياح تركيبي.

1- الانزياح الدلالي، أو الاستدلالي: و يعني الانتقال من المعنى الأساسي أو المعجمي للفظة إلى المعنى السياقي الذي تأخذه حينما توضع في سياق معين، حيث تنزاح الدوال عن مدلولاتها فتختفي- نتيجة لذلك- الدلالات المألوفة للألفاظ لتحل مكانها دلالات جديدة غير معهودة يسعى إليها المتكم.

معنى هذا إن الانزياح الدلالي يقوم على استبدال المعنى الحقيقي، أو الأولي للفظة بالمعنى المجازي العميق، حيث يتم الانتقال من المعنى الأول، إلى المعنى الثاني، ومن المعنى المفهومي إلى المعنى الانفعالي، كما عبر عن ذلك جون كوهن.

فهو إذن ظاهرة أسلوبية، مهمتها الربط بين الألفاظ ومعانيها، وخلق الانسجام والتفاعل بين مكونات اللغة، ذلك التفاعل الذي يكون سببا في انزياح الكلمات عن معانيها، وذلك طبعا عن طريق السياق الذي ترد فيه، مما يكسب النص بعدا فنيا...إنه وسيلة الشعراء للتعبير عن تجاربهم، وتقاسمها مع القارئ، وذلك لا يتأتى إلا عن طريق المجاز، والاستعارة، والتشبيه.

2- الانزياح التركيبي:

ويحدث مثل هذا الانزياح من خلال طريقة الربط بين الدوال بعضها ببعض في العبارة الواحدة، أو في التركيب والفقرة، ومن المقرر أن تركيب العبارة الأدبية عامة، والشعرية منها خاصة، يختلف عن تركيبها في الكلام العادي، أو في النثر العلمي، في حين تكاد تخلو كلمات هذين الأخيرين، إفرادا أو تركيبا من كل ميز، أو قيمة جمالية، فالمبدع الحق هو من يمتلك القدرة على تشكيل اللفظة جماليا بما يتجاوز إطار المألوفات، وبما يجعل التنبؤ بالذي سيسلكه أمرا غير ممكن ومن شأن هذا إذن أن يجعل متلقي الشعر في انتظار دائم لتشكيل جديد ومنه معاني ودلالات جديدة.

وتنبغي الإشارة ها هنا إلى إن التركيب لا ينحصر في الجملة الواحدة ضمن النص، فثمة نوعان آخران من التركيب: يتمثل النوع الأول في تركيب الأصوات، أو الحروف في الكلمة، في حين يتمثل النوع الثاني، وهو ما يهمنا هنا، في تركيب مجموع الجمل بعضها مع بعض كي تشكل في نهاية الأمر بنية النص كله، ونتيجة لذلك فثمة مستويان من التركيب يتحكم فيهما المبدع: مستوى تركيب الكلمات في جملة، ومستوى تركيب الجمل في نص. والانزياح وارد في كلا المستويين. وهكذا نرى أن النص تتضافر فيه جملة من الانزياحات ذات اتجاهات متعددة، وهو ما يدعم فكرة النظر إلى النص بما هو كائن متحرك غير ثابت، ولا متجمد.

ثانيا: أسلوبية الانزياح في النص القرآني

إن ما يميز النص القرآني عن غيره من النصوص، هو امتزاج البعد الديني، والعقائدي فيه بالبعد الفني، والجمالي، حتى صار نصا دينيا لغويا بامتياز، وأصبح من الصعب الفصل بين المستوى العقائدي والمستوى اللغوي، بل لقد تظافر المستويان في تحقيق إعجاز النص القرآني، فأنتجا أسلوبا جديدا، غير موافق تمام الموافقة لما عليه العرب، بل كان أسلوبه، وطريقته طريقة جديدة في استعمال اللغة استعمالا يجعلها مختلفة اختلافا كبيرا عما هي عليه عندهم، فهي كما قال مالك بن نبي: "طريقة فجائية وغريبة" . وقال أيضا: "لقد كان حتما على القرآن- إذا ما أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته الدينية، ومفاهيمه التوحيدية- أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي. والحق أنه قد أحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة، أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة، لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد . "

والناظر في الدراسات القرآنية يلمس إشارات متعددة إلى خروج النص القرآني وانزياحه عما هو مألوف، فإذا كان الانزياح، أو الخروج عن المألوف قد حظي باهتمام رجال البلاغة، والنقد، فكان هو الفيصل بين المستوى الفني، وغير الفني من الكلام، فإنه قد لقي رواجا واحتل مكانة بارزة في كتب الإعجاز، وفي الدراسات القرآنية منذ وقت مبكر. ولعل أول إشارة إلى انزياح النص القرآني وخروجه عما هو مألوف وردت في كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة(٢١٠هـ)، الذي قال إن" في القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر. ..."

وإذا حاولنا كشف حقيقة المجاز عند أبو عبيدة وجدنا أن المجاز عنده هو الانزياح، أو العدول عن المألوف والمعتاد عند الناس من أساليب التعبير، وأنماط الصياغة، واختيار صيغ وأساليب لغوية مما يكسب الكلام مزية عن غيره، وهذا ما ميز القرآن الكريم وجعله يصل إلى مستوى الإعجاز .

إن انزياح النص القرآني وخروجه عن المألوف من كلام العرب هو المقياس المشترك بين كل من تحدثوا عن نظم القرآن وإعجازه، فالرماني يتخذ منه دليلا على تفوق القرآن الكريم على جميع ضروب الكلام، ويطلق عليه" نقض العادة"، يقول: "وأما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة.

وخاتمة لما أسلفنا نقول، إن النص القرآني مثل في بداية ظهوره خروجا عن المتعارف عليه، بل إنه كان في الكثير من مستوياته انزياحا عن اللغة المألوفة، حتى صار من المستحيل مقارنته بانزياح البشر العاديين، أو حتى انزياح المبدعين، إنه انزياح يستقي جماليته من قدرته الكبيرة على إثارة المتلقي ومفاجأته. فبالرغم من قرب النص القرآني من النصوص البشرية، بحكم الانتماء إلى نفس اللغة، يظل

منفردا ومتميزا بقدرته الإعجازية. وقد وجد الدارسون لإعجاز القرآن الكريم في فنون البلاغة من استعارة، وكناية، وتشبيه، ومجاز، وتقديم، وتأخير، وحذف، والتفات وغيرها من الفنون البلاغية أرضا خصبة للكشف عن خصوصية النص القرآني، وإبراز مواطن الانزياح فيه.

وسنحاول في هذه المداخلة إن شاء الله إبراز بعض هذه المواطن في القرآن الكريم.

1- انزياحية المجاز

وقبل أن نورد أمثلة للمجاز هنا لابد أولا من تقديم تعريف له، فلفظ المجاز يدور في اللغة حول فكرة المسلك الرابط بين نقطتين، بما يمكن معه الانتقال والعبور من إحداهما إلى الأخرى. تقول: جُزْتُ الموضع أجوزُهُ جوازا: سلكته وسرت فيه. وأَجَزْتُهُ: خَلَّفْتُهُ وقطعته. أما معنى المجاز في الاصطلاح فنجد ابن جني يقرن بينه وبين الاتساع، يقول: "المجاز والاتساع" . ويقول في موضع آخر: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه. فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة.

ونفس الأمر بالنسبة للجرجاني الذي قال: "اعلم أن لهذا الضرب اتساعا وتفننا لا إلى غاية. "

أما ابن الأثير فالمجاز عنده: "ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة . "

ويفهم من ذلك أن فن المجاز يشمل معنيين، أو بتعبير أدق نظامين دلاليين، يمثل النظام الدلالي الأول- المعنى الظاهر- الدلالة التقريرية الأولى المفهومة من العبارة، في حين يمثل النظام الدلالي الثاني المعروف بـ" معنى المعنى" الدلالة الإيحائية الإضافية التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق التأويل، والمقصود بالمعنى، المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و"بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر . وهنا تتدخل عملية التأويل، والتي نصل من خلالها إلى المعنى المراد.

والحقيقة أن الدلالة الأولى(المعنى) ما هي إلا دلالة سطحية، واستعمال مألوف للألفاظ، في حين تمثل الدلالة الثانية(معنى المعنى) انزياحا عن ذلك المألوف المتداول، وهذا الانتقال من الدلالة الأولى الحقيقية إلى الدلالة الثانية المجازية هو الذي يمثل جوهر الانزياح، عموما، وجوهر الانزياح الدلالي خصوصا.

ولا حرج أن نسارع إلى القول إن بحوث المجاز تمثل مجالا رحبا للكشف عن خصوصية النص القرآني في الانزياح عن المعنى الأصلي إلى معنى جديد يدرك من خلال السياق الذي يرد فيه. فمن المعروف أن البلاغين تحدثوا عن نوعين من المجاز: مجاز عقلي، وآخر لغوي، ولم يكن المجاز القرآني بمنأى عن هذا التقسيم، فقد اشتملت سوره وآياته على نماذج من المجاز العقلي والمجاز اللغوي تعد في القمة من الاستعمال البياني، والذي يهمنا في هذا المقام هو المجاز اللغوي بشقيه: المجاز المرسل، والاستعارة، لأنه يمثل جوهر عملية الانزياح الدلالي.

فالمجاز اللغوي هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلا، لأنه يدلّ على معنى بقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

وهذ يعني أن الألفاظ لا تحتفظ بدلالتها الأصلية، وإنما تنتقل إلى دلالات أخرى جديدة يسعى المتكلم إلى إيصالها إلى المتلقي.

أما المجاز المرسل فقد جرى تعريفه على أنه مجاز لغوي ينقل فيه اللفظ عن دلالته الأصلية إلى دلالته المجازية، وهو ما كانت علاقته غير المشابهة ، وسمي مرسلا لأنه غير مقيد بعلاقة المشابهة.

وللمجاز المرسل علاقات كثيرة ونحن في هذا السياق سنكتفي بذكر بعض منها فقط، وسنرى من خلال نماذج من القرآن الكريم كيف أن هذا المجاز قد تخطى حدود الدائرة اللغوية إلى الدائرة الفنية، وكيف تجاوز بالاتساع بعض معاني المفردات السطحية إلى معان أعمق وأدق، وكيف استطاع في النص القرآني أن ينقل الذهن العربي إلى عوالم أخرى، تتسم بالإبداع والابتكار، عوالم تخرج بالمعاني من عالمها اللغوي، إلى عالم آخر فني، يسافر بالعربي إلى أفق جديد، يجعله مندهشا أمام بلاغة الكلمة، وبلاغة الجملة وبلاغة الصوت، يجعله بعد أن تمكن من قلبه، وعقله، وجعله موقنا أن لا شيء غير إعجاز القرآن يفعل ذلك.

وللمجاز علاقات متنوعة وكثيرة، وهي: السببية، والمسببية، والجزئية، والكلية، واعتبار ما كان، واعتبار ما سيكون، والمحلية والحالية. إلا أننا سنكتفي في هذه المداخلة بالعلاقة السببية والعلاقة المسببية.

1- علاقة السببية:

وذلك بأن يطلق لفظ السبب ويراد المسبب ، أي أن يكون المعنى الذي يدل عليه اللفظ المذكور سببا في المعنى المراد، فيطلق السبب على المسبب أو النتيجة، ومثال ذلك قوله تعالى: "الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ. "

والناظر في قوله تعالى يجد أن الاعتداء الأول والثالث قد استعملا استعمالا حقيقيا، إذ إن كلا منهما يفيد معنى القتال، لكن الاعتداء الثاني في قوله تعالى:" فاعتدوا عليه" ليس اعتداء . ونجد أن الاعتداء هنا انزاح عن دلالته الأصلية، لينتقل إلى دلالة أخرى جديدة وهي المجازاة والقصاص، أي إن استحلوا قتالكم في الشهر الحرام فقاتلوهم أنتم أيضا، وذلك بعقوبة مماثلة لجناية اعتدائه وهذا اعتداء على سبيل القصاص .

فالانزياح هنا حدث في اللفظ الدال على السبب" اعتدوا" إذ انتقلت دلالته إلى ما يكون نتيجة عن الاعتداء من مجازاة وقصاص، ويمكن التمثيل لهذا الانزياح بالشكل التالي:

الدال	الاعتداء
المدلول الحقيقي	القتال

المدلول المجازي الجزاء والقصاص

فحضور المدلول الحقيقي هنا وهو " الاعتداء أو القتال" واضح في الخطاب، ولكنه لا يؤدي المعنى المراد، بل يستدعي المدلول المجازي" الجزاء والقصاص"، أي إن المدلول الحقيقي حاضر وفي نفس الوقت غائب، حاضر لفظا، وغائب معنى. وهنا ينطلق ذهن القارئ من العنصر الأول المنزاح عنه دلاليا (الاعتداء) إلى البحث عن العنصر الثاني المنزاح إليه(الجزاء والقصاص .(

وإذا عدنا إلى اعتماد العلاقة السببية في الآية نجد أنها علاقة غير اعتباطية، وأن الخلاف بين الدال(الاعتداء) والمدلول (الجزاء والقصاص)، خلاف لا يتجاوز السطح فقط، لأن في حقيقته إبراز لقوة السببية بين الاعتداء والجزاء، إذ إن الأول يستلزم الثاني، فهما رديفان، ويؤكد لنا ذلك وجود " الفاء" في " فاعتدوا."

ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ "

فغل اليد وبسطها مجاز عن البخل، والجود ومنه قوله تعالى: "وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ" . وغل اليد وبسطها هنا مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد في ذلك إلى إثبات يد وغل أو بسط .

والمراد من استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن فلما كان للجود وللبخل معنيين لا يدركان بالحس ويلازمهما صورتان تدركان بالحس وهو بسط اليد للجود وقبضها للبخل، عبر عنهما بلازمهما لفائدة الإيضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات .

ومنه نفهم أن لغل اليد مدلولان: الأول حقيقي والثاني مجازي، وهو المراد، ويمكن التمثيل لذلك بالشكل الآتي:

الدال اليد

المدلول الحقيقي شد اليد إلى العنق

المدلول المجازي البخل

وليس المراد من الآية المدلول الحقيقي(شد اليد إلى العنق)، وإنما المراد ما يدل عليه غل اليد من بخل، فباليد يكون العطاء، أي إنها سبب فيه، وإذا كان بسطها دليل على الجود، والكرم، فإن غلها وقبضها، دليل على الشح والبخل. وهنا انزاح التعبير القرآني عن لفظ الحقيقة، أوعن التعبير مباشرة بالبخل أو ما يدل عليه، إلى غل اليد دون شدها إلى العنق. وما كان ذلك ليتم لولا العلاقة السببية بين اللفظين، إذ قام غل اليد مقام البخل.

وهنا تكمن بلاغة الانزياح داخل التعبير القرآني، ذلك أنها صورت حقيقة معنوية مجردة (البخل) بصورة حسية مادية(إلى اليد)، كي تكون أقرب إلى الأفهام، فتصير أرسخ في الأذهان.

2- انزياحية الاستعارة

الاستعارة في اللغة مأخوذة من العارية، والعارة في اللسان: ما تداوله الناس بينهم، واستعاره الشيء واستعاره منه: طلب منه أن يعيره إياه، واعتوروا الشيء وتعوره تعوروه: تداولوه فيما بينهم ، وهي أيضا كما عرفها صاحب الطراز تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه . كما أنها نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه.

ومن الاستعارات الموحية في النص القرآني قوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. "

وفي قوله تعالى "أذاقها لباس الجوع" استعارتان، يقول الزمخشري: "أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع. وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس: ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث. وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان لابد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما، أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له، كما نظر إليه ها هنا.

والإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى إحساسا مكينا كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعا، وقد تقدم في قوله تعالى: لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ.

واللباس: حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسه، كقوله تعالى: هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ بجامع الإحاطة والملازمة .

فاستعير له فعل الإذاقة تمليحا وجمعا بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يؤدب للضيف ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فحصل في الآية استعارتان تهكميتان. الأولى: استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة، والثانية: اللباس وهي أصلية مصرحة.

ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرعة على الأولى ومركبة عليها بجعل لفظها مفعولا للفظ الأولى. وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغا أليما .

ويمكن التمثيل لذلك بالشكل الآتي:

الدال الأول الإذاقة

المدلول الحقيقي إحساس اللسان بأحوال الطعام

المدلول المجازي إصابة القوم وابتلاؤهم

الدال الثاني اللباس

المدلول الحقيقي الشيء الذي يُلبس(الكسوة(

المدلول المجازي الخوف والجوع

وبهذا انزاح لفظ "اللباس" عن مدلوله الحقيقي هي إضافة اللباس إلى الجوع والخوف، كما استعار لفظ " الإذاقة" للدلالة على الابتلاء والاختبار، وهي من ملائمات المستعار له، فالإذاقة بمعنى الابتلاء تلائم ما أصاب القوم من جوع وخوف، معنى هذا أن لفظ " الإذاقة انزاح-أيضا- عن مدلوله الحقيقي وهو الإحساس بأحوال الطعام إلى المدلول المجازي الذي يلائم السياق وهو إصابة القوم وابتلاؤهم بآلام الجوع .

وبعد تحليلنا لنماذج من القرآن الكريم والمتضمنة لأسلوب المجاز، والذي يمثل بالدرجة الأولى، انزياحا دلاليا، ننتقل عبر الأسطر الآتية إلى تحليل نماذج من الحديث النبوي الشريف، محاولين تتبع التقديم والتأخير فيها، والذي يعد بالدرجة بالأولى عنصرا أساسيا من عناصر الانزياح التركيبي.

ثالثا: أسلوبية الانزياح في الحديث النبوي الشريف

1- انزياحية التقديم والتأخير

والتقديم والتأخير كما قال الجرجاني: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان . "

وقد اهتم البلاغيون في تناولهم بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في النفي أو في الإثبات، وتقديمه إذا كان نكرة، أو إذا كان بلفظ وتقديمه إذا كان من ألفاظ العموم على النفي. وقد يرجع اهتمام البلاغيين بدراسة هذه الأمور وإبرازها إلى ما يكمن وراءها من دقائق وأسرار ينبغي على الدارسين الوقوف عليها والإحاطة بها. وللتقديم والتأخير عدة أغراض منها: التشويق إلى ذكر المؤخر، وإرادة تعجيل المقصود من مسرة أو تعظيم، أو مساءة أو تحقير، والتخصيص، والتأكيد وتقوية الحكم، ودفع توهم الخطأ. وقد يكون المقام يستلزم تقديم السبب على المسبب أو الأكثر ،أو الأعجب، أو الأشرف، وقد يصحب أحد الأغراض إرادة المحافظة على الفواصل ومراعاة النسق الصوتي وماله من أثر في المعنى ووقع في النفس، إلى غير ذلك من الأغراض التي يفيد التقديم فيها العناية بالمقدم والاهتمام به لكونه المقصود من غرض الكلام .

وقد ورد هذا الأسلوب في كلام رسول الله ﷺ لدرجة لا يكاد يخلو حديث من أحاديثه، ولا جملة من جمله من تقديم وتأخير. وأسلوب التقديم والتأخير في البلاغة العربية يأتي مناسبا لمقتضيات الأحوال

مراعيا لما يستدعيه المقام، وهذا ما نجده في أحاديثه ﷺ. وسنحاول في هذا المقام ذكر بعض الأحاديث التي تبين اختيار النبي ﷺ لأسلوب التقديم والتأخير.

ومن الأمثلة على تقديم المسند إليه تقديم لفظ الجلالة(الله) في حديث المتلاعنين، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلا قذف زوجته ففرق النبي ﷺ بينهما وقال: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ» فَأَبَيَا، وقَالَ: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ» فَأَبَيَا، فَقَالَ: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ» فَأَبَيَا، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا.

والمراد من الحديث بيان أنه يلزم الكاذب التوبة . والظاهر أن الرسول ﷺ قال ذلك بعد أن تلاعنا وذلك لتخويفهما وترهيبهما لعل أحدهما يتوب، وجاء بلفظ الجلالة(الله) تذكيرا لهما بعظمة الله عز وجل وسعة علمه وإحاطته واطلاعه، وأنه لا يخفى عليه خافية من أمرهما، ولذا جاء المسند فعلا مضارعا(يعلم) إشعارا للمخاطب بأن علم الله حاصل الآن، واحضارا له في ذهن المخاطب وقلبه، لعله يرتدع. وجاء متعلق الفعل جملة مؤكدة لتأكيد كذب أحدهما، وتأكيد علم الله عز وجل بهما، وفي ذلك مزيد ترهيب لهما، وقدم المسند إليه لفظ الجلالة(الله) تأكيدا للترهيب والتخويف وتقوية له. وقد ذكر البلاغيون أن تقديم المسند إليه في الإثبات يفيد تقوية الحكم وتأكيده .

فهنا انزاحت الألفاظ عن رتبها الأصلية، لغرض في نفس رسول الله ﷺ، فما أعظم لفظ الجلالة، حين يذكر، وما بالك إذا ذكر في موقف تخويف، وارتكاب معصية. لهذا ما كان أمر انزياح الألفاظ عن أماكنها أمرا اعتباطيا، بل جاء إشعارا للمتلاعنين بحجم معصيتهم، وأن الله عالم بما قاموا به، وأبدا لم يرض بما قاموا به.

ومن الأمثلة أيضا قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. «

وقد قال الرسول ﷺ هذا الدعاء لما طلب منه أبوبكر الصديق رضي الله عنه أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، قال ميرك: "وهذا الدعاء من الجوامع؛ لأن فيه الاعتراف بغاية التقصير وطلب غاية الأنعام، فالمغفرة ستر الذنوب ومحوها، والرحمة إيصال الخيرات، ففي الأول طلب الزحزحة عن النار، وفي الثاني طلب إدخال الجنة مع الأبرار، وهذا هو الفوز العظيم والنعيم المقيم.

والمعنى أن الداعي طلب منه تعالى أن يجعل له ساترا بينه وبين الذنوب إن لم تكن وقعت، وساترا بينه وبين ما يترتب عليها من العقاب والعتاب إن كانت وقعت ولا يخفى حسن ترتيب هذا الحديث حيث قدم الاعتراف بالذنب ثم بالوحدانية ثم بسؤال المغفرة لأن الاعتراف بذلك أقرب إلى العفو والثناء على السيد بما هو أهله أرجى لقبول سؤاله .

فقوله: (ظلمت نفسي) يعني بإتيان ما يوجب العقوبة، أما قوله: (ولا يغفر الذنوب إلا أنت) جملة معترضة بين قوله: (ظلمت نفسي ظلما كثيرا) وبين قوله: (فاغفر لي مغفرة). وفائدة هذه الجملة الإشارة إلى الإقرار

بأن الله هو الذي يغفر الذنوب وليس ذلك لغيره، وفي الحقيقة هو إقرار أيضا بالوحدانية، لأن من صفته غفران الذنوب .

أما قوله: (من عندك) فهو إشارة إلى مزيد ذلك التعظيم، لأن ما يكون من عنده لا يحيط به وصف الواصفين. وقال ابن الجوزي: "هو طلب مغفرة متفضل بها لا يقتضيها سبب من جهة العبد من عمل صالح وغيره، وحاصله: هب لي المغفرة وإن لم أكن أهلا لها بعملي، وكمل الكلام وختمه بقوله: (وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم). وفي هاتين الصفتين مقابلة حسنة لأن قوله: الغفور مقابل لقوله: اغفر لي وقوله: الرحيم مقابل لقوله: ارحمني. "

ولا يخفى ما في الحديث من حسن سبك وحبك، فالرسول ﷺ لما طلب منه الصديق رضي الله عنه أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، راعى أحوال المخاطبين، وأقول المخاطبين ولا أخص أبا بكر وحده لأن رسالة محمد عليه السلام رسالة للبشرية جمعاء وإن توجه الخطاب لشخص واحد إلا إنه يكون شامل وجاء ﷺ بترتيب يناسب حاجة ذلك المتلقي وما يرغب به. فحاول في دعائه تقديم الأولى فالأولى، فقد الاعتراف بالذنب، ثم الإقرار بالوحدانية، ليسأل بعدها المغفرة.

فأحسن بذلك الرسول الكريم ﷺ ترتيب هذا الحديث، حتى جاء بليغا في ترتيبه، متماسكا في أجزائه.

وعليه يمكن القول إن الجملة العربية لا تتميز بحتمية في ترتيب أجزائها، وبرغم ذلك ترك لنا النحو رتبا تحفظ بالنسبة لهذه الأجزاء، والعدول عن هذه الرتب يمثل نوعا من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية، ومن هنا وجه البلاغيون اهتماما خاصا لهذا البحث، ورصدوا كثيرا من التعبيرات التي توفرت فيها هذه الظاهرة، وما يمكن أن تفيد منه الدلالة، أو بمعنى أصح ما يمكن أن تتغير به الدلالة تغيرا يوجب لها المزية والفضيلة- كما يقول عبد القاهر.

ولعلنا نلاحظ أن سياقات التقديم والتأخير دارت- في الغالب- حول الرتب المحفوظة عند النحاة. وإدراك البلاغيين لهذه الحقيقة النحوية أتاح لهم أن يضيفوا إل مباحثهم بعدا جماليا في تركيب الكلام، من خلال العدول عن الترتيب المألوف إلى ترتيب آخر، يتميز بقدرته على إبراز الدلالة بتقديم جزء على آخر أو تأخيره عنه...ولعلنا نلاحظ- أن دراسة الأسلوب عند البلاغيين، تمثلت في رصد النظام الذي تتشكل عليه أجزاء القول، وأن الترتيب المعتاد لا يقدم أسلوبا بالمعنى الأدبي، وإنما المخالفة في الترتيب هي التي تخرج بهذا الأسلوب من الابتذال إلى الجدة، كما أنها هي التي تدلنا على الغرض العام، وفي نفس الوقت تعطي الدلالة المقصودة، ومن هنا لا يمكن القول بأن دراسة نظام الجملة وترتيب أجزائها كثيرا ما تجور على الأسلوب. ومن الصحيح فعلا أن مجرد المخالفة ينبئ عن غرض ما، وأن هذا الغرض قد يكون توجيه التفات السامع إلى كلمة من الكلمات إبرازا يتحقق عنه تأثير ما، وهي فكرة قررها باسكال pascal حينما صرح بأن الكلمات المختلفة الترتيب يكون لها معنى مختلف، وأن المعاني المختلفة الترتيب يكون لها تأثيرات مختلفة.

خاتمة

وفي الختام نقول إن ظاهرة الانزياح والتي تعد من أبرز الظواهر الأسلوبية متجذرة في التراث البلاغي والنقدي، وإن بمسميات متعددة، منها: العدول والاتساع، والانحراف. وعليه فإن الانزياح يعد النقاط التي تشترك فيها الأسلوبية والبلاغة العربية.

- إن يميز الانزياح، ويجعله ظاهرة أسلوبية هو وظيفته الأساس، والتي تتمثل في عنصر المفاجأة التي تحدته بالنسبة للمتلقي، بحيث تشد انتباهه، وتدفعه إلى الغوص في نايا النص، باحثا عن المعنى المراد، وكاشفا عن أبعاد الدلالات، ودواعيها السياقية.

- الانزياح نوعان: دلالي وتركيبي، ونجدها حاضرة وبقوة في النصوص اللغوية عامة، والنص القرآني خاصة، فالانزياح الدلالي يكشف عن المعنى الآخر للألفاظ، والذي تأخذه من خلال السياق الذي وردت فيه.

- ظاهرة الانزياح، أو الالتفات، أو الانحراف، أو أي ظاهرة من الظواهر التي تؤدي نفس وظيفة الانزياح، كلها من وجوه بلغة القرآن الكريم، وسرا من أسرار إعجازه. بما فيها من وإيحاءات، وتعبيرات غاية في الروعة والبيان.

- المجاز، والاستعارة، وغيره من مباحث علم البيان سمات بارزة في النص القرآني والتي تزيده جمالا، وبلاغة وإعجازا .

- التقديم والتأخير، مبحث بلاغيي أسلوبي حاضر وبقوة في عملية الانزياح، بل إنه يدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود. فما قدم لفظ ولا أخر إلا لغرض بلاغي وحكمة في نفس صاحبها.

- النص القرآني أسلوب متفرد في نظم تركيبه، إذ لا نجد فيه لفظا ينزاح عن موقعه أو دلالته إلا لغرض بلاغي يخدم المعنى، ويثري الدلالة بحسب السياق الذي ورد فيه،

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

-1 أبن الأثير: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد(تـ:٦٣٧هـ)، تحقيق : أحمد الحوفي ، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

-2 أحمد غالب النوري الخرشة، أسلوبية الانزياح في النص القرآني، جامعة مؤتة- عمادة الدراسات العليا، ط: ٢٠٠٨.

-3 أحمد محمد ويس، وظيفة الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، مجلة علامات، ط: ٦: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

-4 الإستانبولي: إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، روح البيان، دار الفكر- بيروت.

-5 ابن جني: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي(تـ:٣٩٢هـ)، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:٤.

-6 البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: ١: ١٤٢٢هـ.

-7 الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكنائي بالولاء الليثي، أبو عثمان،(تـ: ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣.

-8 الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الفارسي الأصلي، الجرجاني الدار(تـ ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة- دار المدني بجدة، ط:٣: ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

-9 الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي(تـ:٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين- بيروت.

-10 ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي(تـ: ٣٢١)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين- بيروت، ط:١: ١٩٨٧م .

-11 الرماني: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي(تـ٣٨٤هـ)، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: ٣: ١٩٧٦م.

-12 الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله(تـ ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي- بيروت، ط: ٣: ١٤٠٧هـ.

-13 الطاهر بن عاشور : محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (تـ : ١٣٩٣هـ)،التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، دار التونسية للنشر – تونس، عام النشر: ١٩٨٤.

-14 أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري(تـ:٢٠٩هـ)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط: ١٣٨١.

-15 العسكري: أبو هلال الحن بن عبد الله بنن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري(تـ: ٣٩٥هـ)، الصناعتين، تحقيق: علي محم البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية-بيروت، ١٤١٩هـ.

-16 العيني: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين(تـ: ٨٥٥هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

-17 عبد السلام المسدي، الاسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط:٣.

-18 عبد العزيز عتيق(تـ ١٣٩٦هـ)، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٢م.

-19 فابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسن(تـ: ٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

-20 القاري: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (تـ : ١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط: ١: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

-21 ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (تـ: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

-22 الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (تـ : ٤٥٠هـ)، تفسير الماوردي- النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

-23 المناوي: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم القاهري (تـ: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى – مصر ط:١: ١٣٥٦.

-24 محمد العمري، البلاغة العربية: الأصول والامتدادات، ط: ١: ١٩٩٨.

-25 محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ط: ١: ١٩٩٣، دار نوبان للطباعة، القاهرة.

-26 منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار ننوى للدراسة والنشر والتوزيع، ط: ١: ٢٠١٥م/ ١٤٣٦هـ.

-27 ابن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر(تـ ١٣٩٣هـ)، الظاهرة القرآنية، دار الفكر- دمشق سورية، ط:٤: ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

-28 يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي، رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين،(دراسة بلاغية تحليلية)، جامعة الإمام محمد بن سعودالإسلامية،١٤٣١هـ..